انحسار نفوذ قرطاجة في غرب البحر الأبيض المتوسط منذ أواخر القرن السادس قبل الميلاد

أ.عبد المجيد صالح المغربي*

1:- الصراع الإغريقي القرطاجي:

شهد القرن السادس قبل الميلاد قيام التنافس الاستعماري بين كل من قرطاجة والإغريق خاصة في صقلية وكان ذلك الصراع تعبيرا عن الرغبة في السيطرة على تلك الجزيرة (الجراري، 40)، ومن تم بسط نفوذ على وسط وغرب البحر الأبيض المتوسط، وقد ظهرت العديد من الشخصيات السياسية الإغريقية التي أرادت تحقيق طموحاتها السياسية والتي من أهمها جيلون Gelon وهيبوكراتس Hippocratis، وكان لمدينة سيركوزا دوراً كبيراً في تلك الحروب التي نشبت بين العديد من المدن الإغريقية، والمدن المتحالفة مع قرطاجة مثل مدينة سلينوس Selinus وهمير Himera، واستطاع القرطاجيون القضاء على محاولة الإغريق إنشاء مستعمرة داخل مناطق النفوذ القرطاجي بصقلية إذ أرسل القرطاجيون أسطولاً بقيادة مإلى Malie الذي تمكن من هزيمة القائد الإغريقي بتنالوس Penthalos (يحي، 1991، 123).

وفي محاولة أخري من الإغريق حاولوا فتح جبهة جديدة للصراع على السواحل الليبية، حيث قام دوريوس Dorius بحملة عسكرية على نهر كنيبس (وادي كعام) بإقليم المدن الثلاث عام 520ق.م وقد تم طرده بفعل المقاومة التي أبدتها القبائل الليبية في المنطقة متحالفة مع قرطاجة (د.ت، 3) وفي سنة 480ق.م أستطاع جيلون Gelon الذي تحالف مع مدينة اجريجنت Agrigente إيقاع هزيمة مريرة بالقوات القرطاجية في هيمرا عندما حاولت قرطاجة توسيع مناطق نفوذها في صقلية، وكان لتلك الهزيمة أثر كبيراً في وقف مطامع القرطاجيين في صقلية، ووضع الحد لسيادتها في غرب البحر المتوسط (جوليان، 105).

لقد كان لتلك الهزيمة التي تلقتها قرطاجة أثاراً مهمة، حيث عملت قرطاجة على تحويل مركز نشاطها الاقتصادي إلى أفريقيا، وهو ما تؤكده الأدلة الأثارية التي دلت علي أن تلك الفترة قد شهدت نشاطاً قرطاجياً متزايداً في المنطقة الممتدة من خليج سرت في الشرق حتى سواحل المحيط الأطلسي في الغرب (الناضوري،191) حيث عانت قرطاجة من نقص الموارد الاقتصادية، الأمر الذي أدى بها إلى أن توجه جل اهتمامها إلى المنطقة، والسعي للنهوض بالتجارة البرية في

* كلية الآداب، جامعة الزاوية.

أفريقيا، وكانت لبده تلعب ذلك الدور الكبير في هذه التجارة (بيومي، 243) وربما كان لطبيعة الفينيقيين المائلة إلى المسالمة دوراً كبيراً في تأكيد سياستها الرامية إلى الحصول على المكاسب الاقتصادية دون العمل على بناء القوة العسكرية اللازمة لحماية تلك المكاسب فلقد أثبتت ذلك تلك الأحداث التي دارت في صقلية وما واجهته قرطاجة من صعاب أثناء ذلك الصراع (عصفور، 82)

شهد العقد الأخير من القرن الخامس ق.م قيام أحداث أدت إلى دخول المدن الإغريقية في بلاد اليونان في صراع من أجل السيادة خاصة ذلك الصراع الذي نشأ بين اسبرطة وأثينا وعودة قرطاجة إلى صقلية إثر طلب مدينة سيجست segeste العون من قرطاجة عندما تعرضت لخطر الهجوم الذي قامت به مدينة سيلينوسselinus وعرضت سيجست على قرطاجة الانضمام إليها، وسارعت قرطاجة إلى ذلك (Dupruck, 1972, 3) وجهزت جيشاً قوياً من أجل استعادة السيادة القرطاجية على الجزيرة، إضافة إلى الانتقام لهزيمة هميرا واستطاع القرطاجيون إلحاق الهزيمة بالإغريق سنة 490ق.م (مهران، 244).

إن الحرب الدائرة بين أثينا واسبرطة وهي الحرب المعروفة بالحروب البلوبونيزية التي امتدت آثارها إلى المدن الإغريقية الموجودة بجزيرة صقلية التي انقسمت في تحالفها بين فريقين فريق يدعم اسبرطة وعلى رأسه سيراكوزا ومدن أخرى انضمت إلى أثينا مثل سيجيت والتي تحالفت من جهة آخري مع قرطاجة وظهر في ذلك ديونيسيوس Dionysius الذي تزعم القيادة بسير اكوزا وأخذ في إعداد الجيوش البحرية والبرية ونجح في إلحاق الهزيمة بقرطاجة في معركة موتيا Motya سنة 398ق.م، غير أن ذلك النصر لم يكتمل إذ تمكن القرطاجيون من تحويل القتال إلى جبهة أخري، وهي ماسانا Massana بقيادة القائد القرطاجي ماجو الذي استطاع إلحاق الهزيمة بقوات سيراكوزا، والتي فقدت عشرات الآلاف من الجنود (الناصري، 1973، 347).

إضافة إلى أكثر من مائة وخمسين سفينة وفي تلك الأثناء أتت الأمراض والأوبئة على أعداد كبيرة من الجيش القرطاجي الأمر الذي مكن ديونيسيوس من تحقيق الانتصار على القرطاجيين، وأقدم القائد ماجوا على وضع حد لحياته بالانتحار، حيث تولى هلمكار القيادة من بعده واستطاع استعادة زمام الأمور نتيجة لقدرته وطموحه العسكري وسرعان ما حول تلك الهزيمة إلى نصر استطاعت بها قرطاجة الحفاظ على بعض المكاسب في صقلية، ثم عقد معاهدة للهدنة بين الطرفين.

لقد أدي الصراع الذي نشأ بين المدن الإغريقية إلى فتح الباب أمام القرطاجيين من أجل السيادة على جزيرة صقلية، ولم يكن أمامهم إلا القضاء على قوة سيراكوزا غير أن تيمولين الذي كان على رأس قوة أرسلتها كورنت لمساعدة سيراكوزا استطاع إلحاق هزيمة برية بالقرطاجيين وحلفائهم في المدينة وقامت قرطاجة بإرسال قوة بقيادة عبد ملكارت الذي تلقى هزيمة فادحة على يد تيمولين عند نهر كرعيسوس تلك الهزيمة التي خسرت فيها قرطاجة آلاف من أبنائها غير المرتزقة هذه المرة (مهران، 248–249)، وتمكن اغاثوكليس من شن العديد من الهجمات على المستعمرات القرطاجية في صقلية.

وسارعت قرطاجة إلى إرسال قواتها إلى الجزيرة مرة أخرى، حيث استطاع القرطاجيون هزيمة آغاثوكليس، الذي فر إلى سيراكوزا محتمياً بأسوارها، غير أن ما تمتع به من دهاء دفعه إلى أن يقدم على الإبحار إلى أفريقيا لمهاجمة الأراضي القرطاجية (Dupruck, 1972, 37)، إن إقدام اغاثوكليس على تلك المغامرة لم تنل حظاً من النجاح نظراً لما لقيته من مقاومة من أهالي قرطاجة أن سياستها الميالة للسلم ورغبتها في الحفاظ على مراكزها التجارية بعيدا عن شن الحروب الاستعمارية لن تجدي أمام هذه التطورات، خاصة وأن قرطاجة قد ظلت فترة طويلة من الزمن تنعم بالأمن والاستقرار، وعلى الرغم من فشل الحملة التي قادها آغاثوكليس على قرطاجة، فان نتائجها كانت خطيرة فقد عرف الرومان الطريق إلى هزيمة قرطاجة إبان الحروب البونية (عصفور، 86–87).

وبالعودة إلى أخبار الحملة فقد قام آغاثوكليس بإنزال قواته بالأراضي القرطاجية بأفريقيا ونزل بمدينة ميقاليوس والتي يحتمل أنها مدينة رادس ومنها انطلقت عملياته العسكرية ليستولي على المدن، ويدمر الأراضي الخصبة، ويحرق الزرع وحاول القرطاجيون جمع القوات للتصدي لتلك الحملة غير أنهم لم يفلحوا في ذلك الأمر الذي أدي إلى فزع الأهالي وقاموا بتقديم المئات من أطفالهم قربانا للآلهة التي اعتقدوا أن سخطها وغضبها عليهم هو الذي أدى إلى تلك المحنة غير أن ذلك لم يجد حيث استمر آغاثوكليس في تقدمه واستولى على مدن عديدة مثل سوسة نابل ورأس الديماس واضطرته الأحداث إلى مغادرة المنطقة وترك جيشه هناك وقام القرطاجيون بمهاجمة ذلك الجيش الذي اندحرت فلوله إلى مدينة اوتيكا في تلك الأثناء قتل القائد القرطاجي عبد ملكرت الذي قطع رأسه أثناء حصاره سيركوزا الأمر الذي زاد محنة القرطاجيين غير أنهم أخذوا في الاستعداد للصمود ومقاومة قوات آغاثوكليس الذي حاول الحصول على إمدادات من أحد قادة الإغريق الذين نصبوا بإقليم قورينائية وهو اوفيلاس الذي أعد جيشه وسار به لمساعدة

آغاثوكليس الذي كان في حاجة لتلك الإمدادات البشرية لا إلى قائد ينازعه السيادة فقتل إفلاس، واستعملت قواته تلك للزحف على مدينة اوتيكا واقليبس وقام بتأسيس بعض المرافئ والموانى البحرية غير إن ما يجري من أحداث في سيركوزا قد اضطرته إلى السفر وترك قيادة الجيوش إلى ابنه ارخاغالوس الذي أخذ بالتوغل في المناطق الداخلية في الوقت الذي كان القرطاجيون يستعدون للانقضاض على الجيوش الإغريقية فهاجموا مواقعها ومعسكراتها ونجحوا في دحر فلولها، وما إن وصلت تلك الأخبار إلى صقلية حتى سارع آغاثوكليس بالرجوع إلى أفريقيا وأمام عزيمة القرطاجيين وتصميمهم على تحقيق النصر تلقى هزيمة ساحقة، وعاد إلى صقلية بعد أن وقع ابنيه في الأسر وهكذا انتهت تلك الحملة بالفشل (صقر، 188-192).

2- الصراع الروماني القرطاجي:

إن الهجرات البشرية التي وفدت إلى شبه الجزيرة الايطالية نتيجة لظروف سياسية واقتصادية أدت إلى امتزاج العديد من العناصر البشرية القادمة من آسيا الصغرى وبلاد الإغريق ووسط أوربا، ومهما اختلفت الروايات حول أصول تلك القبائل ومواطنها الأصلية، فإنها استطاعت أن تحقق نوعاً من الانسجام والتقارب وكثيراً ما استطاعت هذه القبائل تحقيق الاتحاد لمواجهة الأخطار الخارجية لتعود إلى التفكك بعد زوال تلك الأخطار (الناصري، 53)، وكغيرها من المناطق فقد تأثرت شبه الجزيرة الايطالية بالمؤثرات التي جلبتها العناصر الدورية والاخية القادمة من بلاد الإغريق، والتي انقسمت إلى تجمعات قبلية كان من أهمها اللاتين والسامنيين وعناصر إغريقية آخري قطنت مناطق الجنوب الايطالي، وقد لعبت هذه العناصر دوراً كبيراً في نقل المؤثرات الحضارية الإغريقية إلى شبه الجزيرة الايطالية (عبد الساتر، 73) وكان الاتروسكيون Etrusca من أهم تلك العناصر التي كان لها فضل كبير في إقامة الحضارات التي شهدتها شبه الجزيرة الايطالية، حيث أقاموا دولة لهم سيطرت على مناطق واسعة في وسط ايطاليا، وإليهم يرجع الفضل في بناء مدينة روما على نهر التيبر Typer (الناصري، 65).

إن إسقاط النظام الملكي سنة 509ق.م كان يعني إحداث تطورات على الصعيدين الداخلي والخارجي فقد أدى إلى ظهور حالة من العداء بين روما وغيرها من المدن المجاورة التي تدين بالولاء للاتروسكيين، وظهرت العديد من التحالفات التي هددت روما مرات عديدة واندلعت العديد من المعارك بين روما والقبائل المناهضة لها والتي كان من أهمها القبائل القاطنة حول بحيرة رجليوس Regillos حيث استمرت المعارك من سنة 499-496ق.م، ونظراً لشعور روما بتلك الأخطار فإنها اضطرت لعقد العديد من التحالفات ومعاهدات التسوية حتى تمكنت من تحقيق

العديد من الانتصارات أهمها الانتصار على مدينة فياي feae التي تعرضت للحصار مدة عشر سنوات امتدت من سنة 405–396ق.م، وكان الانتصار على هذه المدينة حاسماً إذ استطاعت روما إضافة مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة والتي كانت تحتوي على موارد اقتصادية مهمة، غير أن ذلك لم يحقق لروما الأمن والاستقرار، حيت أنه لم تمض فترة طويلة من الزمن حتى تعرضت روما لهجمات قبائل الغاليين Gallia، الذين أطرتهم هجمات القبائل الجرمانية إلى التوجه نحو الشرق والجنوب، فعبروا الألب نحو إيطإليا وأخذوا بشن الغارات المتتالية على روما واستطاعوا احتلالها وتخريبها.

غير أن الرومان استطاعوا استعادتها بعد أن دفعوا مبالغ مالية كبيرة مقابل انسحاب الغاليين منها أخذ الرومان في إجراء العديد من الإصلاحات خاصةً العسكرية بإقامة العديد من التحسينات حول المدينة للدفاع عنها إذ تكررت تلك الهجمات (نصحي، 1978، 120)، وكما أستطاع الرومان الصمود في وجه ذلك الخطر والقضاء عليه، لقد استطاعوا إخضاع السمنيون Samnites ومدن لاثيوم Latium وكمبانيا Campania كانت سنة 265ق.م هي السنة التي أحكم فيها الرومان سيطرتهم على شبه الجزيرة الايطالية ومن ثم إقامة دولة موحدة قوية لها من التجارب ما أهلها لأن تدخل حرب جديدة، ولكن هذه المرة خارج إيطاليا ومع قرطاجة تلك القوة البحرية والاقتصادية المهيمنة على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وأن يصبح ذلك الحوض حوضاً رومانياً خالصاً بعد سلسلة من المعارك الطاحنة التي خاضتها سواء في صقلية أم أسبانيا والمغرب القديم، والتي انتهت بتدمير قرطاجة في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، ومن ثم استكمال السيطرة الرومانية والانطلاق نحو مناطق أخري لاحتلالها (العبادي، 1999، 36).

إن توحيد شبه الجزيرة الايطالية وصهر تلك القبائل في بوتقة واحدة كانت الأساس الذي قامت عليه الإمبراطورية الرومانية فيما بعد إضافة إلى أن تلك الحروب دارت رحاها بإيطاليا كانت قد أكسبت الرومان خبرة كافية لخوض المزيد من المعارك مدفوعين في ذلك بنشوة الانتصارات، والحصول على مكاسب جديدة (الناصري، 1973، 133) ولعله من المنصف والمفيد ذكره ما ميز الرومان عن غيرهم من الأمم هو قدرتهم علي استيعاب الدروس واعتمادهم على الكفاءة والتنظيم الأمر الذي أهلهم لأن يكونوا قوة مؤثرة في تاريخ العالم القديم وغرب البحر المتوسط خاصةً على مدى قرون عديدة من الزمن.

لقد أدرك الرومان خطورة الوجود القرطاجي على مقربة من السواحل الايطالية في صقلية Sechillia وسردينيا Sardinia وكورسيكا Corsica تلك الجزر العامة ذات الموقع الممتاز وما

تجود به من منتجات زراعية ومواد خام لازمة للصناعة وأن الإصلاحات التي شهدتها شبه الجزيرة الايطالية، والتي شملت الزراعة والاقتصاد وشق الطرق والممرات وإصدار التشريعات والقوانين المنظمة لمرافق الدولة، وهو ما يمثل بنية تحتية مكنت الرومان من السير بخطى ثابتة من أجل بناء دولتهم (نصحي، 121).

وما كانت تلك الإصلاحات لتحدث لو أن الرومان لم يقيموا ذلك النظام الجمهوري، الذي أطاح بالملكية المستبدة وصياغة دستور شاركت في صياغته قطاعات عديدة من المجتمع عبر أجيال متعاقبة، وبذلك كانت الأهداف المرسومة بهذه الدولة متوافقة ومتناغمة مع أهداف الرومان في السيادة، والتوسع على حساب جيرانهم من الإغريق والقرطاجيين وغيرهم من الشعوب (نصحي، 1978، 120)، وأدرك الرومان أن الوقت قد حان، لوضع حد لسيادة قرطاجة في غرب البحر الأبيض المتوسط معلنين بذلك انتهاء عصر السلام الذي ساد العلاقات الرومانية القرطاجية وأن تلك المعاهدات المعقودة بين الطرفين آن لها أن تصبح نسياً منسياً (صفر، 195)، أن تلك المعاهدة التي عقدت منذ أواخر القرن السادس 509ق.م، والتي جددت لمرات عديدة أرادت بها روما إبعاد قرطاجة وعدم تحويلها إلى خصم في تلك الفترة التي شهدت ذلك الصراع بين الرومان والقبائل الايطالية، عندها توجه الرومان بأنظارهم إلى ما وراء إيطاليا، ورنت أبصارهم إلى صقلية والجزر المتاخمة لشواطئ إيطاليا مستغلين حماس الآلاف الجنود المقاتلين الذين اعتادوا حياة الحرب مدفوعين بنشوة تلك الانتصارات التي حققها الرومان بالداخل (ديكريه، 195).

ولعل من أهم المآخذ التي تؤخذ على السياسة القرطاجية أن ساستها قد أغفلوا ما يقوم به الرومان من استعدادات من حيث تحقيق الوحدة والانسجام بين قبائل إيطاليا، وما قاموا به من إصلاحات على الصعيد الداخلي في الوقت الذي لم تهتم فيه قرطاجة إلا بجمع الأموال وفرض الضرائب، بل معاداة سكان المغرب القديم واعتمادها على المرتزقة في إعداد جيوشها، وهذا لا يمثل وقوفاً إلى جانب روما أو إنقاص لدور قرطاجة في المنطقة، وإسهاماتها الحضارية بقدر ما هو إبراز للحقائق التاريخية المجردة من العاطفة والتحيز.

لقد صار وقوع الصدام بين الدولتين وشيكاً وحتمياً روما كقوة لها أهداف توسعية وقرطاجة تلك الدولة التي انصب جل اهتمامها لتحقيق المكاسب الاقتصادية (طراد، 1997، 117-119) دون إعداد العدة لحماية تلك المكاسب، وكانت سنة 264ق.م هي السنة التي شهدت اشتعال فتيل الحرب بين الدولتين.

كان الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ميداناً لها، وكان لها من الآثار البالغة على المنطقة إذ راح ضحيتها الآلآف المؤلفة من الجنود، وألقت بظلالها على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية سواء في روما أم في منطقة المغرب القديم، وعرفت بالحروب البونية وكثيراً ما اتهمت قرطاجة بمسؤوليتها باندلاع تلك الحروب وكأن الرومان قد نأت أيديهم عن إشعالها ولم تقع على عاتقهم مسؤولية اندلاع تلك الحرب الضروس التي أشعلتها روما لتحقيق أهدافها الامبريالية.

وهو ما أثبتته الأيام حتى بعد هزيمة قرطاجة الأمر الذي يؤكد أن قرطاجة ما كانت في يوم من الأيام قد اعتدت على روما أو تدخلت في شؤونها الداخلية، بل أنها عقدت معها المعاهدات وقدمت لها المعونة في حروبها الداخلية ضد القبائل المتمردة في شبه الجزيرة الايطالية وإن وصول الفينيقيين إلى صقلية وسردينيا وكورسيكا وشبه الجزيرة الايبيرية كان قد حدث قبل قرون عديدة لم تكن روما ودولتها قد ظهرت للوجود، إن الادعاء بمسؤولية قرطاجة عن اندلاع تلك الحروب ما هو إلا تزييف وتشويه لحائق التاريخ التي تؤكد إن قرطاجة ما كانت ميالة للحرب، لكنها قد أجبرت على الدخول فيها دفاعاً عن مصالحها الاقتصادية.

اندلعت الحرب بعد أن قامت قرطاجة على التدخل لصالح مجموعة من الجنود المرتزقة الذين استولوا على الحكم في مدينة ماسينا Meseana الواقعة بالقرب من مدينة سيراكوزا Syracosa في شرق جزيرة صقلية، واعتبر الرومان أن هذا العمل ما هو إلا عملاً عدائياً قام به القرطاجيون ضد المصالح الرومانية في الجنوب الايطالي، وما كان من مجلس الشيوخ Senatus، إلا إصدار الأمر لقوات روما بالتوجه إلى ماسينا التي لم يكن في مقدورها مقاومة الجيش الروماني ومن هنا كانت بداية الصدام، وكان ذلك إيذاناً بدخول العلاقات بين الدولتين إلى حالة من العداء بعد أكثر من قرنين من الزمن ساد فيها السلام بين الدولتين (مهران، 256–257).

كان ما أقدم عليه الرومان من إنزال الجيوش في ماسينا يعني تحللاً من جميع المعاهدات المعقودة مع قرطاجة، أن الوجود القرطاجي في صقلية والتي لا تبعد عن الأراضي الأفريقية ومركز الدولة وعاصمتها قرطاجة سوى 140كم، يعني حرمان قرطاجة من الموارد المتوفرة بالجزيرة، إضافة إلى أن إحكام السيطرة على غرب البحر المتوسط لن يتأتى إذا فقدت قرطاجة قواعدها في هذه الجزيرة.

صمم الرومان على ضرورة الوقوف ضد النشاطات التجارية القرطاجية والحد من تنامي نفوذها في غرب المتوسط (مهران، 256–257). لقد بدأت الانتصارات الرومانية في ماسينا بعد أن أنزلت القوات الرومانية في ريجون Region، واستطاع الرومان احتلال المدينة بعد قيامهم بإنشاء جسر يمتد من ريجيون حتى الطرف الآخر من مضيق ماسينا، وانسحبت قوات قرطاجة التي كان يقودها القائد حنون الذي حكم عليه بالإعدام لإقدامه على الانسحاب (ديكريه، 190).

لقد بدأت روما في التوسع تنفيذاً لمخططها الذي يقضي بضرورة السيطرة على الموارد الاقتصادية اللازمة لسد أفواه الجياع في روما، وقد أغرتها وفرة المحاصيل الزراعية والموارد الخام، فالقمح وزيت الزيتون والفضة والقصدير ثروات كفيلة بإنعاش الاقتصاد الروماني، والخروج من تلك الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والسير قدماً في تنفيذ مشروع روما الإمبريالى، وتكوين إمبراطورية مترامية الأطراف.

وحاولت قرطاجة الوقوف ضد الرومان بإرسال قواتها إلى مدينة اجريجنتم Agrigentum الواقعة على الشاطئ الجنوبي لجزيرة صقلية وبكل قوة سارعت روما وحاصرت المدينة ودمرتها تدميراً كاملاً وأجبرت حليفة قرطاجة سيراكوزا Syracus سنة 263ق.م على عقد معاهدة مع الرومان مدتها 15 سنة وكان ذلك كله يعني بداية عهد جديد من الانتصارات الرومانية خارج إيطاليا (طراد، 1997، 120)، وبالرغم من تلك الانتصارات التي حققها الرومان، فقد أدركوا ضرورة إعداد أسطول بحري حتى يتمكنوا من تحقيق المزيد من الانتصارات والوصول إلى أهدافهم المرسومة المتمثلة في القضاء على نفوذ قرطاجة ليس فقط في جزر البحر الأبيض المتوسط بل فيما عدا ذلك من مناطق.

وخلال بضع سنين استطاع الرومان بناء أسطول بحري معتمدين في ذلك على خبرة بعض البحارة الإغريق، وحصولهم على بعض المراكب القرطاجية التي وقعت بين أيديهم أثناء المعارك البحرية التي دارت بين الطرفين، ونظراً لما يتمتع به الرومان من مقدرة على الاستفادة من الدروس والتنظيم الدقيق والروح العالية، فقد عقدوا العزم من أجل القضاء على قرطاجة وسيطرتها البحرية ويوماً بعد آخر ازدادت معرفة الرومان بالبحرية، وأدركوا أهمية الأسطول لنقل الإمدادات وقاموا باختراع أساليب جديدة للقتال البحري، فقد تمكنوا من صنع الروافع التي يمكن بواسطتها جذب مراكب العدو وتحويل المعارك البحرية إلى أشبه ما تكون بالمعارك البرية (طراد، 122).

استطاع الرومان القضاء على معظم سفن الأسطول القرطاجي ولاذ ما تبقى منه بالفرار وفي سنة 254ق.م حاول القرطاجيون الهجوم على الرومان ومراكز تواجدهم بصقلية، واستطاع الرومان مرة أخرى تحقيق انتصاراً على قوات قرطاجة في معركة ميلاي Mylae سنة 260ق.م، (طراد، 258).

لقد سبقت الإشارة إلى أن الرومان الذين أدركوا ضرورة القضاء على قرطاجة لكي يضل المجال فسيحاً أمام نشاطاتهم العسكرية في حوض البحر المتوسط، وبذلك يكون نقل الحرب إلى أفريقيا ضرورة حتمية لتحقيق أهدافهم (الجراري، 1984، 17).

إن الانتصارات التي حققوها على الحاميات القرطاجية في صقلية كانت قد أغرت القنصل الروماني ريجولوس Regolas، الذي قاد أسطولاً رومانياً لمهاجمة قرطاج غير أن قوة الجيش القرطاجي في تلك الفترة أدت إلى هزيمة الجيش الروماني هزيمة ساحقة سنة 255ق.م إضافة إلى تحطيم الأسطول الروماني القادم إلى نجدته إثر العواصف العاتية التي أغرقت السفن الرومانية وهي في عرض البحر الأبيض المتوسط، ومرة أخرى تكتشف حقيقة الأوضاع التي كانت عليها السياسة القرطاجية التي أثبتت عجزها عن استغلال ذلك النصر الذي حققته على الرومان.

إذ أن الظروف كانت مواتية لقرطاجة لو أنها أقدمت على توجيه ضربة عسكرية لروما، الأمر الذي أدى إلى كسر شوكته العسكرية ووضع حد لتطلعاتها الاستعمارية وانصرفت قرطاجة إلى معاقبة الثوار والمتمردين الذين تحالفوا مع ريجولوس والتنكيل بهم الأمر الذي زاد من حالة التذمر بين سكان المنطقة، ولم يكتف القرطاجيين عند هذا الحد بل أنهم أرسلوا ريجولوس لإقناع حكومته بعقد معاهدة السلام، غير أنه بمجرد وصوله إلى روما أخذ يحث الرومان على عدم الدخول في أي معاهدة مع قرطاجة وعدم التسليم بشروطها وعاد إلى أفريقيا ليلاقي أنواعاً من التعذيب على يد القرطاجيين (المدني، 45) واستطاع الرومان سنة 242ق.م تحقيق نصر وصف بأنه الحاسم في معركة أخرى هي معركة ايجيتس Egates، ومكنهم هذا النصر من ضم جزر كروسيكا وسردينيا وأصبحت هذه الجزر إضافة إلى صقلية جزر رومانية (طراد، 1997، 125).

هكذا كانت الانتصارات التي حققها الرومان، قد كشفت عن مدى عمق السياسة التي اتبعتها قرطاجة في إدارة الصراع فها هي تفقد هذه الجزر لتعاني العديد من الانتكاسات والثورات الداخلية التي أخذت تعصف بوجودها كقوة اقتصادية وعسكرية في المنطقة، فالهزائم المتكررة قد أدت إلى أن تفقد قرطاجة تلك المراكز التجارية المهمة ومناجم المواد الأولية اللازمة لمصانعها، بل إنها

أجبرت على دفع غرامة مالية مقابل السلام الذي لن يأتي، ولم تستطع قرطاجة دفع رواتب جنودها الليبيين الذين أعلنوا الثورة ضدها، وكادت تلك الثورة تعصف بوجودها، كان الموقف عصيباً فقد وقعت قرطاجة بين المطرقة والسندان أخطار خارجية متمثلة في أخطار الرومان، ورغبتهم في انتزاع السيادة البحرية وحرمان قرطاجة من مواردها الاقتصادية، وأخطار داخلية متمثلة في ثورات وانتفاضات كان مدخلها عجز قرطاجة عن تسديد مرتبات الجند وحقيقتها سوء السياسة التي اتبعتها قرطاجة ضد السكان.

والتي كان آخرها ما قامت به من عمليات قمعية ضد ثورة ماتوس، وما قام به الرومان من تحريض وإثارة الفتن بعد أن وجدت مناخاً مناسباً نتيجة للظروف التي تمر بها المنطقة (المدني، 46). عندئذ أدرك القائد القرطاجي هملكار Himilcar ضرورة البحث عن مدينة أخرى تكون محطة لتضميد الجراح وتنظيم الصفوف، بعيداً عن الأخطار فتوجه إلى شبه الجزيرة الأيبيرية، حيث مناجم الفضة والقصدير ومستودع الرجال علـه يستطيع درء الأخطار عن قرطاجة فنزل بقادس Cadiss 227ق.م، ومنها انطلق في فتوحاته التي استمرت لمدة تزيد عن 9 سنوات حتى قتل في إحدى المعارك هناك تولى القيادة من بعده القائد صدر بعل وأسس مدينة قرطاجنة الجديدة.

وأمام تلك التطورات استنجد بعض القبائل الاسبانية بروما التي هددت بإعلان الحرب في حالة الاعتداء على حليفتها مدينة ساجنتوم Saguntum الواقعة شرق نهر الابيرو، اغتيل صدر بعل على أيدي رجال القبائل الاسبانية (الناصري، 1973، 160) ليأتي من بعده هانيبال Hannipal ذلك القائد الذي كان مثل الشجاعة والإقدام ذو ذكاء خارق ومهارة فائقة ليعد من أعظم القادة العسكريين الذي قادوا الجيوش ليس في قرطاجة فحسب بل في تاريخ العالم العسكري عامة بفضل إنجازاته العسكرية المهمة (Appian, Vi).

إن ما يتمتع به هانيبال من مقدرة ودراية، جعلته يدرك إن خير الوسائل الدفاعية هي مباغتة العدو ومهاجمته من حيث لم يكن متوقعاً، فبدأ أعماله بتوجيه ضربات متتالية وقاسية لحلفاء الرومان في شبه الجزيرة الأيبيرية وكانت مدينة ساجنتوم أول أهدافهم والتي كثيراً ما أعلنت العداء للقرطاجيين مستنجدة بأعدائهم الرومان حيث حاصرهم هانيبال شهور عدة انتهت بسقوطها وكان ذلك في سنة 219ق.م رأت روما أن ذلك العمل كان موجهاً لسمعتها وهيبتها العسكرية أمام حلفائها وأرسل الرومان لجنة إلى قرطاجة تحمل احتجاجاً من مجلس الشيوخ الروماني يطالبوا فيه بإيقاف العدوان على حلفاء روما، وطالبوا قرطاجة بتنحية هانيبال من قيادة الجيوش.

وقوبلت طلبات الرومان تلك بالرفض من جانب القرطاجيين الذين قرروا القتال دفاعاً عن مصالحهم (الميلي، 153) كانت سنة 218ق.م تاريخاً لاشتعال الحرب مرة أخرى تلك الحرب التي أدرك هانيبال حتمية وقوعها، وقرر نقل الحرب إلى الأرض الايطالية وأخذ بإعداد الجيوش المدربة، بالإضافة إلى جنوده الأوفياء من المشاة والفرسان الليبيين الذين صاحبوه في معاركه بأسبانيا فقد تمكن من تجنيد العديد من رجال القبائل الاسبانية عاقداً العزم على تحقيق مبتغاه ومهاجمة الرومان في عقر دارهم في محاولة لتحقيق مشروعية الرامي للقضاء على ذلك الخطر (دولي، 68).

استطاع هانيبال بسرعة فائقة وبراعة منقطعة النظير اجتياز الموانع الطبيعية المتمثلة في سلسلة جبال البيرنيه على الحدود الاسبانية الفرنسية، سائراً بمحاذاة نهر الرون Ron ليقوم باجتياز جبال الألب Allp الشاهقة الواقعة في الشمال الايطالي مصطحباً سلاحه السري (الفيلة) ليبتدئ أعماله العسكرية داخل شبه الجزيرة الايطالية مختاراً الزمان والمكان المناسبين لتنفيذ خططه البارعة والتي كانت كفيلة لتحقيق الانتصار، لولا المواقف المتخاذلة التي كانت عليه حكومة قرطاجة ومجالسها التي عمها الفساد والانقسامات (الناصري، 1973، 145).

إن وصول هانيبال شمال ايطاليا سرعان ما عم خبره أرجاء شبه الجزيرة الايطالية، وأدرك الرومان خطورة الموقف فأرسل مجلس الشيوخ الروماني يستدعي القادة المتواجدين بجبهات أخرى في صقلية ومرسيليا وغيرها في محاولة للوقوف ضد قوات قرطاجة التي يقودها هانيبال، وتقابل الجيشان في موقعة تريبيا Tripea الواقعة بسهل البو بمقاطعة لمبارديا Lambardia واستطاع هانيبال تحقيق أول انتصاراته على الرومان في هذه المعركة كورنليوس سكيبيو Cornelius، الذي لم يجد أمامه إلا الانسحاب منتظراً جيشاً رومانياً قادماً بقيادة سمبرونيوس لونجوس Longos Semperonios.

الذي وصل لمبارديا Lambardia لمساعدة سكيبو الذي اندفع بدون تفكير وقرر الدخول في حرب ضد هانيبال، حيث كانت نتيجتها هزيمة أخرى في معركة تراسمين Trasimene اشد وقعاً على الرومان وأدت الانتصارات التي حققها هانيبال إلى تمرد أعداد كبيرة من الغاليين على الرومان والتحاقهم بجيوش هانيبال الذي أخذ في إثارة مشاعر الغاليين ضد الرومان هادفاً من ذلك إلى ضرب الوحدة الرومانية كما أدى حصول هانيبال على كميات كبيرة من التموين والإمدادات إلى ازدياد القدرة العسكرية لقواته المتواجدة بايطاليا (الناصري، 150).

وفي سنة 216ق.م تم اختيار القنصلين اميليوس باولوس Aemilius paullus وتيرنتيوس فارو Caius Terentius Varro، حيث أقدم فارو على الدخول في معركة لم يقدّر عواقبها بجيش تعداده 80 ألف مقاتل من فارس وراجل ليلتقي في معركة كاناي Cannae في الثاني من شهر هانيبال (أغسطس) 216ق.م والتي وصفت بأنها من المعارك المهمة في التاريخ، حيث فقد الرومان المئات من أعضاء مجلس الشيوخ بالإضافة إلى القنصل اميليوس باولوس Baulus Emilius.

وكانت هذه المعركة قد أدت إلى حالة من التمرد والعصيان بين القبائل الخاضعة للرومان، ونصح هانيبال بالزحف علي روما، غير أنه لم يقدم على ذلك لأن هراي إن عزل المدينة كفيلاً بسقوطها، إضافة إلى إن حصارها قد يستغرق من الوقت طويلاً الأمر الذي لا يتلاءم مع أساليبه الحربية، كذلك مناعة الحصينات الرومانية حول هذه المدينة ولعل ذلك كان أكبر الأخطاء التي أرتكبها هانيبال في حروبه (المدني، 56)، ولعل ما يؤكد ذلك قولة مساعده ماهرابال Mahrbal التي قال فيها مخاطباً لهانيبال:-إنك تعرف كيف تحقق النصر لكنك لا تعرف كيف تستفيد من ذلك النصر (الناصري، 1973، 151).

لم تقدم روما على معاقبة رجالها كما أقدمت قرطاجة من قبل على إعدام قادتها فقد أستقبل Varro، الذي فر بمن بقي معه من جنود تحت جنح الظلام استقبال المنتصرين ولم يتنكر له مجلس الشيوخ الروماني، الذي أمر بإعداد الجيوش والاستعداد لقتال هانيبال من جديد وإطالة أمد الحرب والمقاومة (الناصري، ص131).

حينئذ أدرك هانيبال حاجته للإمدادات فأرسل طالباً ذلك من قرطاجة التي كانت تعاني الانقسامات الحزبية والصراع على السلطة، حزب آثر السلامة على الردى غير مقتنعاً بالانتصارات التي حققها هانيبال على الرومان في محاولة لمنع تألق نجم البرقيين الخصم اللدود لأسرة الماجونيين، وحزباً هم أنصار آل برقا الذين أيدوا ما قام به هانيبال، وبعد جدل طويل، أقدمت قرطاجة على إرسال قوة محتشمة لم تكن قادرة على حماية نفسها قدر لها أن لا تصل إلى هانيبال، ففي طريقها إلى إيطاليا عبر إيبيريا، بقيادة هاسدربال Hasdrubal حيث علم الرومان بأمر هذه النجدة فقطعوا الطريق عليها وأبيد إفرادها وسقط هادربال صريعاً وأقدم الرومان على إرسال رأسه إلى أخيه هانيبال الذي كان وقع الحدث عظيماً عليه.

إن الموقف ازداد تأزما فَقَدْ فَقَدَ هانيبال أي أمل في وصول الإمدادات إليه بالرغم من أنه استطاع عقد العديد من المعاهدات مع الإغريق في محاولة لإضعاف الرومان وظل بمن تبقى من جيشه معزولاً في الجنوب الايطالي، وقد أنهكته المعارك، وفي مقابل ذلك كان الرومان يحققون العديد من الانتصارات في شبه الجزيرة الأيبيرية (طراد، 1997، 142)، بالرغم من أن القائد القرطاجي (ماجون) حاول إشغال الرومان بالبقاء في اسبانيا لإبعادهم عن هانيبال في ايطاليا، غير إن ذلك لم يجدي ووقفت العديد من المدن الاسبانية إلى جانب الرومان، مما أدى إلى ازدياد المتاعب التي تواجه القرطاجيين في شبه الجزيرة الأيبيرية، ويعود سكيبيو Scipio إلى روما ومن ثم اختياره قنصلاً، حيث عرض خطة تقضي بنقل الحرب إلى إفريقيا هذه المرة (يحي، 1999، 157).

وأدرك أن الفرصة سانحة لهزيمة قرطاجة خاصة وان الإحداث التي شهدتها منطقة المغرب كانت قد أدت إلى قيام تحالف بين مسينسا والرومان الذين وعدوه بالمساعدة في استعادة عرش نوميديا والثار من قرطاجة التي وقفت موقف المتفرج من الصراع الدائر بين سيفاكس وغايا الحليف المخلص لقرطاجة، ولم تكتف قرطاجة بذلك الموقف بل إنها عملت على استمالة سيفاكس الذي استطاع انتزاع العرش النوميدي بعد القضاء على غايا وكان لذلك الحدث أثر سيء في نفس مسينسا الذي عاد من أسبانيا مصمماً على استعادة عرش أبيه وخوض الحرب ضد سيفاكس حليف قرطاج الجديد (ديكريه، 201).

المصادر والمراجع

1- أبو المحاسن محمد عصفور، المدن الفينيقية. المدن الفينيقية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1981.

2- الجراري محمد الطاهر، الاستيطان الروماني والايطالي في ليبيا، منشورات جامعة، طرابلس ومركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1984.

3- الجراري محمد الطاهر، دوافع الاستيطان الإغريقي لليبيا، مجلة البحوث الأثرية، السنة السابعة، جامعة الفاتح، يناير 1984.

4- العبادي مصطفي، الإمبراطورية الرومانية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999.

5- المدني أحمد توفيق، قرطاجنة في أربع عصور، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

6- الميلي محمد مبارك، تاريخ الجزائر القديم والحديث، تقديم وتصحيح: محمد ألميلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976.

7- الناصري سيد أحمد علي، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، دار النهضة العربية، القاهرة، 1973.

8- الناصري سيد أحمد علي، تاريخ الرومان من القرية إلى سقوط الإمبراطورية، دار النهضة العربية، القاهرة.

9- الناضوري رشيد، المغرب الكبير، ج1، العصور القديمة، دار النهضة العربية، بيروت، 1999.

10- جوليان شارل اندريه، تاريخ أفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978.

11- دولند د.دولي، حضارة روما، ترجمة جميل يواقيم الذهبي وآخرون، دار النهضة بمصر، القاهرة، د.ت.

12- صفر أحمد، مدينة المغرب العربي في التاريخ، أبو سلامة للنشر، مطبعة العمل، تونس، 1959.

13- طراد نجيب إبراهيم، تاريخ الرومان، مكتبة الغد، القاهرة، 1997.

14- عبد الساتر لبيب، الحضارات، ط9، دار المشرق، بيروت، 1982.

15- فرانسوا ديكريه، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، ت: عزالدين أحمد عزو، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، 1996.

16- مهران محمد بيومي، المغرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990.
17- نصحي إبراهيم، تاريخ الرومان منذ أقدم العصور حتى 133 ق.م،الانجلو المصرية، القاهرة، 1978.
18- يحي لطفي عبد الوهاب، التاريخ اليوناني والروماني، مطبعة المدينة، القاهرة، 1999.
19- يحي لطفي عبد الوهاب، مقدمة التاريخ الحضاري، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1991.
20- Appian ,The Spanish Wars, Vi, Roman, History, 1970.
21- Gseeo. s. histoire Ancielle del "Afrique denord, Tom 1-3 Ottozellcrverlag, 5.5 Dupruck. Paris, 1972.
22- Romamelli . p. Lepcis Magna, Rome, 1922.